بوادر الانشطار في فكر النخبة الليبرالية الجزائرية وانعكاسها على القضية الوطنية ما بين 1943/1919

إعداد الدكتور أحمد مريوش

المدرسة العليا للأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانية بوزريعة الجزائر

تمهيد:

مما لا شك فيه أن العمل السياسي في الجزائر منذ منتصف القرن 19 عرف تحولا جديدا في التعامل مع القضايا الوطنية خصوصا وأن الإدارة الاستعمارية قد تمكنت من استمالة العديد من الوجوه الجزائرية البارزة والمنتسبة للعائلات الكبيرة، ومن تم أفرزت الساحة الجزائرية ردود أفعال متنوعة تمثلت في تقديم العرائض وتنقل الوفود إلى المؤسسات الاستعمارية سواء منها في الجزائر أو السفر إلى باريس طلبا للإصلاحات، بعدما عرف المجتمع الجزائري العديد من التوترات، وأصبحت الضرورة ماسة إلى طلب التغيير نتيجة أسباب عديدة كانطفاء فتيل الثورات الشعبية وتماطل الإجراءات التعسفية الفرنسية في حق الجزائريين وكل ذلك مكن من التحول في العمل لمجابهة السياسة الفرنسية التعسفية، والبحث عن بدائل جديدة وأكثر جدية في العمل السياسي بدل التركيز على عامل المقاومة المباشرة أسباب الانشطار في حركة النخبة الليبرالية:

1- تمادي فرنسا في تقنين القوانين التعسفية ضد الجزائريين:

لعل المتتبع للسياسة الاستعمارية في الجزائر منذ تولية الحاكم العام جونار على رأس الولاية العامة يجدها قد اتسمت بطابع الليونة في تعاملها مع القضية الجزائرية والاعتراف في بعض الأحيان ببعض المطالب التي كانت النخبة تسعى لتقديمها للإدارة الفرنسية بدعوى الحصول على رضا المعمرين وذويهم، وكذلك الإبقاء على خيط معاوية بينها وبين رغبة الجزائريين في تبني حركة الإصلاح.

وإذا كان جونار قد كيف سياسته الجديدة مع الجزائريين وظهرت حركة الانبعاث الثقافية ونحوها من مظاهر النهضة، فإن ذلك لا يعني من جهة أخرى إعطاء الجزائريين متسعا من العمل الفكري والسياسي ونحوه من معاول العملية النهضوية، كانت إصلاحاته بمثابة ذر الرماد في أعين الجزائريين خصوصا بعدما سن مجموعة من الإجراءات التعسفية والمجحفة في حق النهضة الجزائرية الناشئة، و لم يخف عن التوجه ألإقصائي وتخوفه من أية حركة جزائرية هادفة .

وبالرغم من سياسة الليونة التي تبناها جونار بعد إصداره لقانون الحكم المدني الذي طبق على مناطق الشمال دون الجنوب الذي ظل على الحكم العسكري وكذا الاستقلال المالي الذي خدم المعمرين، فإن سياسة هذا الأخير لم تخلو من طابع القوة والبطش ضد الجزائريين بعد محاولته لاستمالة طبقة النخبة وخصوصا رجال الدين الرسميين الذين تعاطفوا مع مشروعه الذي يهدف إلى التهدئة.

ومن جملة الإجراءات التعسفية التي ضغط بها جونار لمواجهة بوادر النهضة الجزائرية تأسيسه للمحاكم الرادعة سنة1902 لترهيب الجزائريين، وتجديده لقانون الأهالي البغيض الصادر في 1881، وكذا صدوره لمنشور سمي باسمه سنة 1906 من خلاله وسعت الرقابة على المشتبه فيهم كما تم التشديد على مراقبة الحجاج وحتى غلق العديد من المقاهي وجمع الأسلحة ومنع التجمعات وكل ذلك زاد من خنق الحريات التي كانت تسعى إليها طبقة النخبة عشية الحرب العالمية الأولى .[1]

2 - المشاركة الجزائرية في لحرب العالمية الأولى:

لقد كان لصدور قانون التجنيد الإجباري على الجزائريين في فبراير من سنة 1912 أثره الكبير على تفعيل القضية الجزائرية، وبروز ظاهرة العصيان المدني لدى الكثير من الشبان الجزائريين، وبرغم ذلك فقد جندت الإدارة الفرنسية المتواطئة مع القياد ونحوهم ما يربوا عن نصف مليون جزائري بين الجنود و العمال .[2]

ولو أنها لم تشر بعد بأية إشارة لترضية مطالب الجزائريين ومع انفجار الحرب أصدرت قوانين اضطهادية أخرى بما في ذلك قانون الطوارئ والرقابة.[3] وبالمقابل أوحت فرنسا إلى رجالها المختارين بعناية فائقة على أن يعلنوا الولاء لها، وبناء على التقارير الفرنسية فإن هذه الجماعة من بني وي وي أعلن كل خدماتها لفرنسا بل

وعلى إستعدادهم للحرب ضد ألمانيا وحليفتها الدولة العثمانية، وبناء على رأي الكتاب الفرنسيين فإن جميع الطبقات الاجتماعية الجزائرية قد ساهمت في الحرب وهذه الطبقات هي:

أولا: جماعة النخبة الذين انضموا إلى فرق المشاة وكان حبهم لفرنسا مخلصا.

ثانيا: أهل الجاه و شباب الأسر الكبيرة الذين فضلوا فرق الخيالة

ثالثا: الخماسة و العمال الزراعيين الذين دربوا بعناية وخدموا مع الرماة

رابعا: أبناء العائلات البسيطة الذين أذن لهم آباؤهم بالمشاركة في الحرب لظروف اقتصادية بحتة

خامسا: الطبقة المعدومة التي لا تملك مأوى ولا زاد غذائي ولا مهنة.[4] وإذا كانت الإدارة الاستعمارية قد تمكنت من تجنيد الشباب الجزائري وتوهيم الرأي العام بمساندة الجزائريين لها في محنها، فإنها لم تستطع قتل الذاتية الوطنية من نفوسهم وقد عبر الكثير منهم وهو في جبهات الحرب عن حسه الوطني وكذا تمرده الغير مباشر ضدها، بل هناك من هرب من الجيش الفرنسي سواء في الجزائر أو الشرق الأدنى أو في الجبهات الأوروبية والتحق بالجزائريين الثائرين سواء في الجزائر أو المهجر وكونوا جماعة مضادة وكتل وطنية مع بعض المغاربة والتونسيين وطالبوا باستقلال شمال إفريقيا .[5]

كما ظهرت في هذه الآونة الأشعار الشعبية التي عبرت بالفعل عن مصدر الحس الوطني لدى الجزائريين وهم في خطوط النار، ومن هذه الأغاني أغنية الحاج غليوم التي تعد مصدرا شعبيا هاما يجسد حقيقة جوهرية تمثلت في تماسك المجتمع الجزائري بقضيته رغم ارتباطه بفرنسا ومشاركة أبنائه في جبهات القتال مع فرنسا ضد الألمان لكن المشاعر ضلت مرتبطة بألمانيا العدو التاريخي لفرنسا، بل كان الإمبراطور غليوم الثاني يعد صديقا للمسلمين وهو حليف الإمبراطورية العثمانية ونشرت المجلة الإفريقية هذه القصيدة الشعبية التي تعد بحق إبداعا جماعيا ضد الحرب الأولى وكانت متداولة في العديد من مناطق الجزائر بما فيها الصحراوية منها ومما جاء في مطلعها:

يا لفرنسيس واش في بالك * الجزائر ماشي ديالك .[6]

وإذا كان هناك من الشباب الجزائري من جند قصرا وفيه من تطوع لظروف اجتماعية قاهرة لكسب لقمة العيش، فإن هناك من تمرد على الإدارة الفرنسية وحمل السلاح مرة أخرى لفعل المقاومة، وقد عرفت فترة الحرب الأولى العديد من

الانتفاضات الشعبية القوية أهمها ثورة الهوقار 1916 التي قام بها الطوارق بالتعاون مع الحركة السنوسية سنة 1916[7] وثورة 1916التي امتد لهيبها من منطقة بلاد القبائل شرقا حتى منطقة وهران غربا، وقد أربكت هذه الثورات الإدارة الفرنسية التي كانت منشغلة بالحرب، وشكلت عليها خطورة وهذا باعتراف الفرنسيين أنفسهم،إذ وصفها ديبون بالثورات الصعبة وأنها شكلت تمردات هامة وسعت من الاضطرابات الخطيرة وقللت من وضعية الأمن[8] .

والظاهر أن حرب العصابات التي عرفت بها الجزائر مع بداية القرن العشرين والتقليل من العمل التصادمي تجاه الإدارة الفرنسية، تعد منهجا متواصلا مع فكر المقاومة التي ظلت في نفوس الكثير من الجزائريين ففي سنة 1916 شهدت أقاليم أخرى من الجزائر العديد من العمليات الهادفة لتعكير الجو الفرنسي كالتي قام بها سكان الأوراس بباتنة والتي كانت ردا عنيفا ضد تجنيد الشباب الأوراسي خدمة لفرنسا[9] وامتد صداها إلى الأقاليم المجاورة حتى كسبت الأنصار بقسنطينة ومنطقة السهوب، وقد كلفت هذه الانتفاضات الإدارة الفرنسية خسائر مادية وبشرية معتبرة من أجل إخمادها .

3 - حركة الهجرة الجزائرية نحو الخارج :

لقد مرت الهجرة الجزائرية نحو الخارج بالعديد من المراحل منذ بداية الاحتلال بفعل العديد من العوامل الطاردة والمستقبلة لها، وما يهمنا هنا الهجرة الجماعية التي أحتضنها المشرق الإسلامي مع بداية القرن الماضي والتي تشبعت أصحابها إلى حد ما بأفكار الجامعة الإسلامية بعد أن عايشوا أحداثها، بل كانت للعديد من الشخصيات الجزائرية مساهمات فيها، ومن تم تعد هذه الهجرة مظهرا من مظاهر المقاومة السلمية ضد الوجود الفرنسي في الجزائر، ولا غرابة أن نجد في تاريخ الهجرة الجزائرية أن أول عائلة قصدت بلاد الشام مباشرة بعد الاحتلال كانت من منطقة زواوة ببلاد القبائل بعد أن رفضت العيش تحت العلم الفرنسي من جراء عملية التوسع الفرنسي باتجاه شرق العاصمة.

وتذكر العديد من الكتابات الفرنسية أن الهجرة الجزائرية كانت تحتوي على العديد من المتمردين والمتعصبين وحتى السياسيين، وكانوا دوما على علاقاتهم بالوطن إذ كانوا يشنون خلال أحاديثهم واتصالاتهم حملة مسمومة ضد السياسة الفرنسية، وكانت هجوما تهم مركزة حول القوانين الاستثنائية التي يقولون بأنها قد حولت

الجزائريين إلى عبيد وبؤساء، وكثيرا ما تطرق المهاجرون إلى ما فقدوه من الأوقاف ورصد الأبواب أمام الحجاج إلى البقاع المقدسة مع الإشارة إلى الاعتقالات العلنية والسرية، وتهميش الجزائريين في التوظيف والخدمات المدنية والعسكرية، وتحطيم العادات والتقاليد العربية الإسلامية،وكذا إجهاض الجزائريين بالضرائب المتنوعة.(10)

ومن الواضح أن الهجرة الجزائرية ظلت على اتصال وثيق بقضايا الوطن من خلال تواتر الأخبار والمشاهد التي كانت تنقل إليهم من خلال الحجاج والتجار وحتى السياح من مناطق مختلفة من العالم العربي والإسلامي، وبذلك ساهموا في نشر الدعاية لخدمة أفكار الجامعة الإسلامية التي كانت تراهن على التحرر من ربق الاستعمار بعد أن تمتع هؤلاء المهاجرون بمكانة لائقة في الكثير من الأقاليم التي حلوا بها وتولوا الوظائف العالية والسمعة الطيبة بين مسلمي ومسيحي الشرق وخصوصا ببلاد الشام بسبب مواقف الأمير عبد القادر سنة 1860 حين أنقذ الآف من مذبحة طائفية بين الموارنة والدروز في دمشق وكان سفير المغرب العربي منذ غادر بلاده.(11)

4- بعث حركة الإحياء الثقافي:

يعد نهاية القرن 19 وبداية القرن العشرين نقطة تحول في تاريخ الجزائر الثقافي من وجهته الإيجابية، بل كان نقلة نوعية في تطور المسار الفكري للنخبة الجزائرية، وخصوصا منها الوطنية، وقد جاء ذلك بعد سياسة الاسترخاء التي أنتهجها الحاكم العام جونار في ولايته على الجزائر التي نصب عليها ثلاث مرات، وكان من وجهة نظره السماع للمطالب الجزائرية والوقوف عند بعضها بذل من سياسة سماع الطرشان التي أنتهجها من سبقه على حكم الولاية العامة. والظاهر أن سياسة الرجل كللت بحركة ثقافية لم تكن مألوفة في السابق ومن بينها بوزر حركة صحفية جزائرية باللغة العربية والفرنسية وهي كرد فعل على الصحافة الكولونيالية التي كانت تصدر لخدمة الدعاية الاستعمارية وكذا إنجاح مشاريع فرنسا التوسعية في الجزائر .(12)

ظهرت جريدة الأخبار وهي أسبوعية ناطقة بالفرنسية، ومع بداية 1909 أصبحت الجريدة تصدر باللغتين الفرنسية والعربية، واستمرت في الظهور إلى غاية 1934، أما الجريدة الثانية التي كان لها شأن كبير فهي جريدة المبشر التي تأسست في 1847 وكانت تصدر بالفرنسية والعربية، وفي سنة 1882 ظهرت جريدة أخرى في

قسنطينة وهي جريدة المنتخب وعشية الحرب الأولى ظهرت صحف جديدة للترويج للحرب منها أخبار الحرب وفرنسا الإسلامية وغيرها من الجرائد العديدة والتي لم تعالج هموم الجزائريين .للمزيد أنظر: محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847الى 1939، ط1، (ش، و،ن،ت، الجزائر 1980) ص 19 ومن دون شك أن احتكار الإدارة الاستعمارية للصحافة كان الدافع القوي الذي حفر بعض الجزائريين مع مطلع القرن إلى التفكير في تأسيس صحافة جزائرية، وكانت النخبة الليبرالية هي السباقة إلى ذلك، ومن بين الأسماء التي خاضت العمل الصحفي نذكر العربي فخار الذي أسس جريدة المصباح بالعربية والفرنسية سنة 1904، ولعل هدف هدا المولود الإعلامي الجديد هو البحث على جو التفاهم بين المجموعة الجزائرية والأوروبية، وكانت صحافة فخار قد حفزت بعض الآخر عن الخوض في هذا المجال وظهرت جريدة الجزائر لعمر راسم سنة 1908باللسان العربي، وكان هدفها هو توعية وتثقيف وتعليم الجزائريين [13].

كما عرفت الفترة ميلاد صحافة متعددة الأسماء ولكنها تصب في حركية الإحياء الثقافي، ومنها كوكب إفريقيا للشيخ محمود كحوا سنة 1907، وصحيفة الإسلام باللغة الفرنسية والعربية لصاحبها الصادق دندان سنة 1912،[14] والفاروق لعمر بن قدور الجزائري، وتعد أولى الجرائد الوطنية التي ارتقت إلى مصاف الجرائد العربية المعتبرة وكانت إسلامية وطنية محضة، وقد جاء في افتتاحيتها: جريدة إسلامية بكل معاني الكلمة تبحث في شؤون المسلمين مع مراعاة الاعتدال الذي انتقته مشربا لها [15].

وكان لبروز الصحافة الجزائرية مع بداية القرن أثره الإيجابي في تفعيل القضية الوطنية وإثراء الانتعاشة الثقافية والفكرية بين جموع المثقفين الجزائريين سواء منهم من حالفهم الحظ في التعليم بالمدرسة الفرنسية أو الذين هاجروا إلى دول المشرق والمغرب وتعلموا ما فيه الكفاية من فنون العربية ونحوها من العلوم الأخرى، وقد أوجد هذا التراكم المعرفي أرضية جديدة لعملية التفكير المؤسس على نظرة جديدة لم تكن بعيدة وقتها عن قضايا الجزائر ، ولو أنها ظلت في سياج الاستعمار الفرنسي.

كما أ، المرحلة عرفت أيضا بروز نخبة من الفرنسيين من ساهموا هم أيضا في بناء حركة صحفية وأسسوا بعض العناوين ومنهم المستشرق الفرنسي بيارفونطانا الذي أسس جريدة المغرب بالعربية، كما أسس أيضا مطبعة ساهمت في الطباعة

الحرف العربي وطبعت العديد من الكتب للنخبة المعربة[16] التي أرست أسسا جديدة في الفكر النهضوي أمثال المولود بن الموهوب، ومحمد بن شنب، ومحمود كحول، وعبد الحليم بن سماية والشيخ عبد الحليم المحاوي وغيره من رجال الثقافة العربية الذين أوجدوا مناخا موازيا مع ثقافة المستعمر، بل عدلوا من فكر التطرف الذي ظهر لدى النخبة المغربة[17]، وكانت للصحافة العربية مساهمة كبيرة في بعث الاتجاه الإسلامي وقد أشاد بها محمد عبده حينما زار الجزائر وقال عنها بأنها مفيدة للجزائريين الذين حرموا من الصحافة العربية لأمد طويل[18]. كما اعتبر علي مراد الزيارة بالعمل الإيجابي فخلال سنوات 1919 الى 1925 برزت في الجزائر النخبة المعربة المتشبعة بمبادئ الدين الإسلامي والغير منجرة وراء المرابطية والطرقية [19].

والحق أن ظهور صناعة الصحافة الوطنية في الجزائر يعد تحد صارخ في وجه دعاة التبعية للاستعمار الفرنسي، بل كان الفعل الصحفي وسيلة جديدة في فعل المقاومة الوطنية، وحتى هذه الفكرة لم تكن بعيدة عند النخبة المتفرنسة من الجزائريين وقتئذ بحيث نجد أن الشريف بن حبيلس الذي يعد أحد ركائز النخب الليبرالية بتثمين العمل الصحفي ويعتبره رسالة حضارية .[20].

في حين ذكره مالك بن نبي في مذكراته بأنه يعد نقلة نوعية في مجال العمل الوطني الذي رسمه الجزائريون خلال العشرينيات من القرن الماضي وبالتحديد في الجزائر العاصمة بعد أن طالع جريدة صوت الشعب التي أصدرها علي بن أحمد وأشار إلى ذلك بقوله: "لا أتذكر ما قرأت في العدد الذي وصلني منها، ولكنني أتذكر أنني شعرت من خلال لهجتها أن صدورها عبر عن مرحلة جديدة في تاريخ الصحافة الجزائرية الوطنية التي انتقلت من المطالبة بحقوق الشعب إلى الهجوم الصريح على الاستعمار، كانت هذه النغمة جديدة فعلا على صحافتنا، فكتبت على الفور أشكر وأهنئ علي بن أحمد على شجاعته لأن صوت الشعب كان فعلا حلقة وصل في تطور صحافتنا.."[21] في حين اعتبرها آجيرون بمثابة المقوم الأساسي لميلاد الوطنية الجزائرية .[22].

5 - فشل مشروع تجنيس الجزائريين :

لم تكن نظرة الإدارة الاستعمارية مقتصرة على الهيمنة على الأرض والعقار وبناء المستوطنات وتأسيس اقتصاد فرنسي واستراف خيرات الجزائريين، بل ركزت

السلطة الاستعمارية كذلك على وسائل أخرى لتحقيق عملية الاندماج وإلحاق الجزائر رأسا بفرنسا، ولعل من بين هذه المعاول نذكر سياسة التجنيس وربطها وتصنيفها ضمن الملفات التي كانت دوما تبعثها من حين لآخر تحت شعار سياسة الإصلاحات، ولذلك لا غرابة أن نجد ملف التجنس كان دائما له حصة الأسد في محاولة فتح الآفاق أمام استقطاب الجزائريين وإغرائهم بالمناصب وخصوصا النخب منهم، لأنه من شروط المتجنس معرفة اللغة الفرنسية وأداء الخدمة العسكرية والعمل المسبق في الإدارة والتملك للعقار ونحوه من الشروط التي وضعتها فرنسا في حق الراغب في الحصول على الجنسية الفرنسية .[23]

ومع مطلع القرن وبروز طلائع العمل الوطني المنظم و تأسيس حركة النهضة الجزائرية طرحت الإدارة الفرنسية بقوة ملف التجنس وروجت له بين طبقة النخبة المتفرنسة وخصوصا لدى النواب الجزائريين، وكانت نظرة فرنسا للنخبة الجزائرية محفوفة بالشك خصوصا إذا علمنا أن القابلية عليه كانت فاترة رغم أن إصلاحات جورج كليمانصو رئيس وزراء فرنسا الصادرة في فيفري من سنة 1919 تمنح للجزائري المتجنس الحق في الحصول على الحقوق الفرنسية بسهولة تامة شريطة أن يلتزم صاحبها بالتخلي عن أحواله الشخصية [24].

ولعل أكبر عقبة كانت فرنسا قد وضعتها في شروط المتجنس هو تركه لأحواله الشخصية الإسلامية، ولذا لم تكن هناك استجابة كبيرة لدى الجزائريين للتجنس، وهذا باعتراف الفرنسيين أنفسهم ، إذ يذكر شارل روبير أجرون أن نسبة الإقبال على التجنس كانت ضعيفة جدا، بل تكاد تكون شبه منعدمة لدي النساء الجزائريات .[25]

والحق أن قضية التجنس قد عمقت من الشرخ بين حركة الشبان الجزائريين وظهر فريق ينادي بالتخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية ، هذا في حين طالبت المجموعة الثانية بحق المواطنة و الحفاظ على أحوال الشخصية الإسلامية، ومن تم دعا الفريق الأول إلى ضرورة الارتباط بفرنسا وقد مثل هذا الفريق بن التهامي والربيع الزناتي وغيرهما من غلاة الاندماج، وقد كون هذا الجناح دعاة يبثون أفكارهم عن طريق الصحافة والخطب والمناصب وهم يمثلون النخبة المتخرجة من المدرسة الفرنسية وكذا الموظفين الرسميين وأصحاب الهوية الغربية [26]

والظاهر أن الجناح الداعي لتحقيق الجزائر الفرنسية وتطبيق سياسة التجنس قد خابت آماله و لم يلق الرواج الواسع الذي كان ينتظره، فقد كتب الزناتي العديد من المقالات في جريدة صوت الأهالي وهو يمثل جماعة المنسلخين عن كيانهم حتى قال عنه توفيق المدني بأنه أكبر داعية للتجنس والتفرنس في قطر الجزائر، وبرغم رغبة هذا الأخير في خدمة الإدارة الاستعمارية ، إلا أنه قد عبر في الكثير من المرات عن فشله في مشروعه الإسندماري، ووضح ذلك من خلال مقال له بعنوان: المتجنسون المساكين، ومما جاء فيه قوله: "كان المضنون بأن التجنس يدخل المرء أصالة في العائلة الفرنسية، فضحى الكثير من أجل ذلك ماضيهم وتقاليدهم ودينهم، وجعلوا أنفسهم عرضة لامتهان وازدراء بني جلدتهم، إلا أنهم بذل أن يصبحوا مقابل ذلك فرنسيين أصبحوا طبقة ثالثة في البلاد، لا هم فرنسيين ولا هم من الأهالي، وأصبحت الجزائر تشمل طبقة الفرنسيين، تليها طبقة المتجنسين ثم طبقة الأهالي [27].

هذا عن الجناح الأول للنخبة الليبرالية، فأما عن الفريق الثاني فكان أكثر ارتباطا بإرادة الجزائريين، وطالب بالمساواة في ظل الوجود الفرنسي، وقبل بفكرة التجنس على مضض، بل ربطها بفكرة الحقوق والواجبات مع الفرنسيين، كما شدد على الحفاظ على الأحوال الشخصية الإسلامية، وقد وجد هذا الفريق في شخص الأمير خالد الممثل له والحامل لرايته [28].

ويذكر سعد الله أن الإصلاحات الفرنسية الصادرة بعد نهاية الحرب الأولى سنة 1919، قد زادت من حدة سوء التفاهم بين جماعة النخبة الجزائرية، وكان الخلاف واضحا حول الاندماج، أي بمعنى هل يشرع في التعجيل بالمناداة بضم الجزائر إلى فرنسا وجعل من سياسة الاندماج كإحدى الوسائل المحققة للمساواة مع الفرنسيين؟ أو يجب الإصرار على المساواة مع الاحتفاظ على الأحوال الشخصية الإسلامية .[29].

6 - مشاركة النخبة في انتخابات 1919:

إذا كانت الخلافات بين رجال النخبة ظلت شبه صامتة، و لم تطغى على ساحة الأحداث وقتها، فإن الترشح لانتخابات المجلس البلدي بالعاصمة سنة 1919 الذي جاء كنتيجة من نتائج سياسة الإصلاحات الموعود بها للجزائريين بعد الحرب، قد كشف للعنان الشرخ الكبير الذي تعاني منه هذه الجماعة، بل كان الأمر أكثر من

ذلك إذ برز زعيمين متنافسين على قوائم الانتخابات وهما: الدكتور بن التهامي الذي كان على رأس الاندماجيين والتي منها: وليد عيسى، والدكتور تامزالي، والأمير خالد الذي كان على رأس الثانية، والى جانبه المهندس قايد حمود، والدكتور بن العربي، والحاج عمار، وبن سمان والمحامي خايفة، وسيدي بومدين وبرنامجهم ينادي بالمساواة في إطار الأحوال الشخصية الإسلامية .[30]

ومن دون شك أن كل طرف من الطرفين جعل من حملته الانتخابية الوسيلة الأساسية لإثبات شرعية الحصول على العديد من الأصوات بغرض الفوز في الانتخابات، وهنا تشير الدراسات إلى أن بن التهامي لم يضف الجديد إلى حملته الانتخابية التي عرفت بعض الفتور وأن الدعوة للتجنس لم تجد الأذان الصاغية لها بإعتبارأن التشهير لها قد لازم الخطاب النهضوي الذي أضحى جليا لدى بعض رجال الدين المحافظين.

أما منافس بن التهامي الأمير خالد فقد شرع في حملته الانتخابية المبنية على مطلب المساواة ورفض التنازل على الأحوال الشخصية الإسلامية، ومن تم فقد استوحى خالد حملته من رغبات وطموحات الجزائريين، وبالتالي وجدت من الترحيب و الإقبال الشيء الكبير، كما جعل الأمير من الفكرة الإسلامية المحور الرئيسي التي ركز عليها في نشاطه التعبوي، ولذلك لا غرابة أن نجد الأمير يفوز بسهولة على خصومه السياسيين.[31] بل ذهب آجيرون إلى أبعد من ذلك واعتبر انتصار خالد يعد بداية لبروز حزب إسلامي مستوحى من المرجعية الوطنية الجزائرية.[32]

والجدول التالي يوضح ذلك الفوز الكبير الذي أحرزته جماعة الأمير خالد

الاتجاه الإصلاحي	عدد الأصوات	نوعية المجالس المنتخبة	عدد الأصوات	الاتجاه الاندماجي
جماعة الأمير خالد	925	المجلس البلدي	332	جماعة بن التهامي
	2505	المجلس العمالي	256	
	7000	المجلس المالي	2500	

(2)

7 - بروز الاتجاه الديني الإصلاحي:

لقد عرفت نهاية الحرب العالمية الأولى بروز الخطاب الديني الإصلاحي الذي لم يكن مألوفا في السابق، وظهرت كوكبة من رجال الدين بما فيهم التيار الديني المحافظي يدعون إلى ضرورة التغيير في العقلية الجزائرية، ولو أن هذه الجماعة اعتمدت في خطابها على توظيف الدين في مخاطبة العقول، والدعوة إلى حركة التجديد الإسلامي والأخذ بالسلف الصالح، والمطالبة بتعليم العربية للجميع بل إجبارها في الإدارة والمراسلات ونحوها مثلما ظهر ذلك جليا في برنامج نجم شمال إفريقيا منذ مؤتمري بروكسل سنة 1927 وباريس.

وقد استعملت جماعة النخبة المنتسبة للدور التعليم العربي والإسلامي وسائل عديدة في عملية الدعوة والتغيير التي تنشدها سواء ما ظهر في الصحافة والكتابة أو القول المباشر والخطاب الدعوي وترشيد دور التعليم والكتاتيب والمساجد ونحوها من مؤسسات التربية والتعليم التي ظلت سارية المفعول برغم المراقبة الشديدة التي كانت مفروضة عليها.

ومما لا شك فيه أن ذلك المناخ الثقافي الجديد قد أوجد من يرحب به من الجزائريين وخصوصا على مستوى المدن التي كانت السباقة لمثل ذلك العمل سواء الثقافي منه والفكري أو السياسي فيما بعد لتوفر جملة من المعطيات التي كان الريف يفتقر إليها بسب العزلة وسياسة الإقطاع الفلاحي التي طبقت على العائلة الجزائرية الريفية التي ظلت على ولائها التقليدي لبعض الطرق الصوفية[33] والتي خرج بعضها على المرجع الديني الذي تأسست من خلاله وظلت تدعوا للفكر المغلق الغير مؤسس على منطق الدين القويم والعلم، هذا في حين استطاعت مديرية الشؤون الأهلية أن تدجن بعضها الآخر لتوافق مع السياسة الفرنسية الجديدة مع مطلع القرن العشرين، بعد أن انتقلت من مرحلة الاستيطان والتوسع في الأرض وبناء مراكز للمعمرين، إلى الاهتمام بتدجين العقلية الجزائرية واحتلالها، بل المراهنة على إنتاج نموذجا جديدا في عملية التفكير لدى بعض الجزائريين والجزائريات، وخصوصا النخبة المتخرجة من المدرسة الفرنسية. وقد أشارت إلى ذلك إيفون توران بقولها: "فهذا التعليم الذي نريد أن نقدمه للبنات من الأهالي سيبقى لزمن بعيد أيضا متناقضا مع الدور الذي توكله المعتقدات الدينية والأخلاق والعادات العائلية إلى المرأة في المجتمع العربي، إنه محض وهم أن نعتقد أننا نعد لإصلاح هذا المجتمع بأن نعلم شابات المدن المسلمات

القراءة والكتابة والحساب حسب مناهجنا فبتربيتهن على الطريقة الأوروبية نجعلهن غير صالحات للحياة العربية، إننا بذلك نحضر خليلات للأوروبيين، وليس قطعا زوجات للأهالي" [34].

كما أن هذه الوصفة الدقيقة لا تنطبق على الإناث دون الذكور فهم أيضا لا يختلفون في ذلك عن حالة المرأة باعتبار أن الطفل هو الآخر ولد في بيئة جزائرية لها من الثقافة والتقاليد والقيم والدين والسلوك ما لم يجده في المحيط الفرنسي الذي يدرس به، كما أن التمدرس يكسبه العديد من القيم الدخيلة على تكوينه البيئي والعائلي، وكل ذلك يكسبه فصام في تكوينه الشخصي، ولا غرابة أن نجد العديد من طلبة خريجي المدرسة الفرنسية يتزوجون بالفرنسيات، وخصوصا النخبة التي ترقت في السلك الإداري والوظيف ونحوه، ومن أمثلة ذلك زواج كل من فرحات عباس ومحمد الصالح بن جلول والدكتور سعدان ومصالي الحاج والقائمة طويلة لأن دور المرأة في توجيه الرجل مهمة جدا وقد قال في ذلك الصدد الفيلسوف الألماني شوبنهاور: الرجال صناديق مغلقة مفاتيحها عند النساء .

مع بداية العشرينيات من القرن الماضي ظهرت مفاهيم جديدة في حركة التنوير المؤسسة على اللغة والدين والقومية والتاريخ والهوية، وهذه المفاهيم كانت قبل اليوم شبه محظورة على الجزائريين، بل طمسها الاستعمار حتى يقطع الصلة بين جيل القرن التاسع عشر والجيل الجديد الذي استلهم مقوماته من مبادئ فرنسية وهمية لم تكن في الواقع الفرنسي، وقد اعترفت النخبة الليبرالية بتلك الأغلوطة فيما بعد وخصوصا بعد تأسيس الحركة السياسية المنظمة وتبلور الوعي القومي الوطني وقد عبر عباس عن ذلك بقوله: إن ثقافتنا لم تفصلنا عن شعبنا، بل بقي فكرنا دائما عالقا به لاصقا بأولئك الذين بقوا وراء القافلة [35].

انعكاسات انشطار النخبة على القضية الوطنية :

مما لاشك فيه أن سوء التفاهم والاختلاف الذي عاشته جماعة النخبة الليبرالية سوف ينعكس لا محالة على الوضعية السياسية في الجزائر، خصوصا إذا علمنا أن الفترة كانت حساسة جدا باعتبارها حلقة جديدة في نمو الوعي النهضوي الجزائري، وظهور الخطاب الجديد في التعامل مع القضية الجزائرية عشية إنهاء الحرب العالمي الأولى. ونتيجة لذلك برزت جملة من المعطيات أثرت على الفعل السياسي الوطني ومنها:

1 - بروز الفكر الوسطي في الحركة الوطنية:

إن الدارس للحياة السياسية في الجزائر خلال العشرينيات يلاحظ تواجد تيارين أساسين في الحقل السياسي هما تيار النجم الذي راهن منذ الوهلة الأولى على الطرح الاستقلالي ومخاطبة الاستعمار بالوسائل المباشرة، في حين نجد التيار الثاني يمثله النواب الذين ظلوا يؤمنون بالعمل في كنف التواجد الفرنسي، وهم يطالبون بالحقوق في إطار الأبوة الفرنسية، ومن ثم كان التوجه الأول يتناقض في طرحه مع التوجه الثاني بل كان مضاد له، كل ذلك دفع بالعديد من رجال النخبة الجزائرية إلى البحث عن تيار يمثل الاعتدال بل يجمع ما تبقى من الجزائريين الذين يمثلون الأكثرية وهم غير ممثلين في الخريطة السياسية الناشئة، علما وأن النجم كان يمثل كتلة المهاجرين في فرنسا أكثر من تواجده وانتشاره في الجزائر و لم يكن له من الأنصار والمؤيـــدين على نطاق واسع حتى مرحلة انعقاد المؤتمر الإسلامي في طائفة 1936 وبالضبط بعد عودة مصالي إلى الجزائر مع الوفادة التي سافرت إلى باريس لتقديم مطالب المؤتمر إلى حكومة فرنسا[36].

والظاهر أن فكر الاعتدال في العمل السياسي ظهر جليا لدى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست في شهر ماي من سنة 1931 بعدما أصبحت الضرورة ماسة إلى ذلك نتيجة التحضيرات المكثفة التي قامت بها الإدارة الفرنسية للاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، وقد رصدت للحدث الإمكانات المادية والمعنوية الكبيرة، بل جعلت شعار الاحتفال التعبير عن نشوة الانتصار وتمجيد القادة العسكريين ،ونصرة المسيحية وبالمقابل ادعت تشييع جنازة الإسلام وانتصار الصليب على الهلال وغيره من الشعارات التي استفزت بها مشاعر المسلمين الجزائريين وقد أوضح توفيق المدني الأثر البليغ الذي تركه الاحتفال على نفسية الجزائريين من جهة، وعلى القضية الوطنية بقوله: "إن احتفال الفرنسيين بمرور قرن على احتلالهم أرض الجزائر قد قدم القضية الجزائرية عشرين سنة على الأقل .." [37].

ومن دون شك أن الجمعية جاءت لخدمة جوانب شتى فقد خاطبت العقل وحاربت الجمود وشجعت على الاجتهاد وتوظيف الذات، وحاربت الإتكالية والاعتماد على الغير، وكان عملها مستوحى من القرآن والسنة النبوية والسلف الصالح، وقد أكد ذلك الشيخ بن باديس من خلال شرحه لدعوة الجمعية وأصولها في خطبة الجمعة بالجامع الأخضر وقد ذكر بذلك في عشرين نقطة منها: مرجعية الجمعيـــة هي الإسلام والقرآن الكـــريم، والسنة القولية والفعليـــة، وسلوك

السلـــف الصالح، والاعتماد على فهوم أئمة السلف الصالح، محاربة البدعة، خدمة المصلحة العامة، غرس التوحيد باعتباره أساس الدين، محاربة الشرك والشعوذة، وعند المصلحة العامة يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة ..[38].

وإذا كان هدف جمعية العلماء هو تكوين رؤية جادة في جوانبها العقلية والمنهجية، فإن مديرية الشؤون الأهلية التي كان على رأسها بيرك كانت ترى ضرورة تشجيع رجال الدين الرسميين لإيحاء جو من التناقض في الحياة الدينية الإسلامية، وقد أشار إلى ذلك بقوله: "لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الإسلامي إلى درجة أننا أصبحنا لا نسمح بتسمية المفتي أو الإمام، إلا من بين الرجال الذين اجتازوا سائر درجات التجسس، ولا يمكن لموظف ديني أن ينال أي رقي إلا إذا ما أظهر للإدارة الفرنسية إخلاصا منقطع النظير..."[39].

ومن دون شك أن الاتجاه الإصلاحي قد كون ثقافة وطنية لأنه تبنى أسسها ومكن لها في الوطن وخدمها بأفكاره وبثها بين الجزائريين على نطاق واسع، كما كرس لها الوسائل المختلفة وركز على فكرة الإحياء والتجديد وصقل العقيدة والتفكير في قضايا لمجتمع[40].

2 - ميلاد أول ائتلاف سياسي خلال المؤتمر الإسلامي سنة 1936:

تعد طائفة 1936 بداية التحول في العمل السياسي في الجزائر منذ بروز المعالم الأساسية للخريطة السياسية في الجزائر بعد تأسيس النجم في باريس سنة 1926، وميلاد فيدرالية النواب سنة 1927، والإعلان على جمعية العلماء سنة 1931، وانفصال الحزب الشيوعي الجزائري عن الحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1935، وكان لكل من هذه الأطياف مناهجها وبرامجها وأهدافها الخاصة بها، وبدون مبالغة يمكن القول أن الساحة الوطنية أصبحت مؤهلة للخوض في قضايا سياسية هامة لم تكن مألوفة خلال القرن التاسع عشر. ومع وصول الواجهة الشعبية إلى السلطة ازدادت طموحات التيارات السياسية في التقرب من فرنسا بغية تحقيق جملة من المطالب، وأصبحت الضرورة ماسة لتقارب الأحزاب وطرح الكثير من القضايا من وجهة متقاربة خصوصا بعد زيارة وزير الداخلية الفرنسي ريني للجزائر وصدوره لقراره المشئوم سنة 1935[41].

الذي زاد من غضب الجزائريين وظهور العديد من الاضطرابات في المدن الجزائرية والتي لم تكن بريئة من الدعم السياسي لها. وهنا نجد عمار أوزقان زعيم الحزب الشيوعي الجزائري يشيد باعتدال الجمعية وتعاملها مع الأحزاب بقوله: لقد شاركت الحركة الإصلاحية مشاركة فعالة في إضعاف الاتجاه الذي كان يدعو إلى الاندماج ويقول به المثقفون المتفرنسون الذين كان يترأسهم الدكتور بن جلول كان بن باديس خطيبا ساحرا ومتواضعا كأحد أبناء الشعب وكان مصلحنا الديني ثوريا خالصا وحكيما، لا يتطلب من كل مرحلة تاريخية أكثر مما تقدر أن تعطى، كان أب المؤتمر الإسلامي الجزائري حيث تحقق إتحاد جميع الاتجاهات المناهضة للاستعمار، وكان هذا المؤتمر استنفارا عاما للشعب الجزائري بغية الإتحاد والعمل دون استثناء ودون عصبية [42].

ومن دون الوقوف عند مطالب المؤتمر التي جسدت جميع الحساسيات المشاركة فيه، وكان هناك شبه إجماع على جميع المطالب باستثناء مطلب الإلحاق الذي أغضب مصالي الحاج وجماعته، فإن الشيء الذي استطاع أن يحققه المؤتمرون هو الجلوس إلى طاولة واحدة والنظر في قضية واحدة هي الجزائر برغم التناقضات التي كانت واضحة بين هذه الأطياف السياسية، ووصولهم إلى تدوين مطالب واحدة وكذا السفر في مجموعة واحدة إلى باريس لطرح قضيتهم على حكومة فرنسا، وكذا لقائهم بمصالي الحاج والتحاور معه قبيل تقديم المطالب لفرنسا، وهذه المراحل المختلفة تعد إيجابية سياسيا لطبيعة المرحلة بغض النظر عن نتائج المؤتمر. لأنها حققت مشروع التعبئة ولفت أنظار ملايين الجزائريين إلى الحدث وتتبع مراحله بل والحضور المكثف لاستقبال الوفادة بعد عودتها من باريس ولقائها بالأنصار في الملعب البلدي ببلكور في يوم 2 آوت 1936 [43].

3 - الاختلاف بن عباس وبن جلول وتأسيس الإتحاد الشعبي الجزائري سنة 1938:

يبدوا أن سنوات شهر العسل بين النائبين لم يكتب لها النجاح المستمر، بسبب بروز العديد من التغيرات والمستجدات السياسية والتي لم تكن في الحسبان بالنسبة للرجلين بعد اتساع الرقعة الجغرافية للحياة السياسية التي لم تبق محتكرة على نخبة المدرسة الفرنسية وكتلة المحافظين، بل امتدت لتشمل العديد من الجزائريين الذين تشبعوا بفكر سياسياختلف تماما عما كانت النخبة تدعو له بعد الحرب الأولى [44]، كما أن البنية الدينية للجزائريين خرجت من تقوقعها التقليدي إلى العمل بفكر الحداثة، وخصوصا بعدما تمكنت الجمعية من الخوض في قضايا سياسية كانت محرمة

على رجل الدين في القاموس الفرنسي لكن الجمعية أدرجت مطالبها ضمن مطالب رجال السياسة [45].

كما أن العلاقة بين بن باديس وبن جلول في قسنطينة ظلت طبيعية جدا لما يحتله كل منهما لدى حظوة المجتمع القسنطيني وحتى لدى الإدارة الفرنسية، وإذا كان بن جلول قد حمى نفسه لفكره الاندماجي، ومنصبه الاجتماعي والإداري، فإن بن باديس كسب الحصانة من العائلة وحب القسنطينيين له بعد عودته من الحجاز وبدايته لمرحلة جديدة في العمل الدعوي والفكري، كما كانت الرابطة العائلية تربط الرجلين من الوجهة التاريخية والدينية كانت لكليهما زوايا خلال العهد العثماني.

ولعل موقف بن جلول مع بن باديس في حوادث اليهود بقسنطينة سنة 1934[46] لخير دليل على ذلك، وقد أشار إلى ذلك بن باديس بقوله: إثر هذا جاء الدكتور بن جلول وكان خارج البلد في معالجة بعض مرضاه فوقف يهدئ الناس، والرصاص ما زال ينصب من نوافذ اليهود، واستطاع بعد الجهد الجهيد أن يسكن الناس ويفرقهم وانتهت المصيبة نحو الساعة الثالثة... وفي مساء السبت اجتمعت بالدكتور بن جلول فاتفقنا على أن نخطب في الناس لتهدئتهم ورأينا وجوب المبادرة قبل دخول الليل [47].

أما فرحات عباس فلم يكن هو الآخر بعيدا عن الأحداث، خصوصا إذا علمنا وأن الرجل تخرج سنة1932 من جامعة الجزائر بشهادة صيدلي وفتح بمدينة سطيف صيدلية للدواء، والمدينة قد سبق للإبراهيمي بالدعوة للإصلاح بين أهلها قبل هذا التاريخ، كما أن سطيف لم تكن بعيدة عن منطقة الطاهير التي ولد فيها عباس، وأن هموم الجيجليين لا تختلف عن هموم السطايفيين ، ولذلك كان عباس قريبا من حركة العلماء، و لم يكن بعيدا عن توجيهات العقبي بالعاصمة لجموع للطلبة خلال خلال مؤتمراتهم التي عقدوها في الجزائر وخصوصا المؤتمر طلبة مسلمي شمال إفريقيا الذي أحتضنه نادي الترقي سنة 1932 [48] .

وكان موقف عباس من الأحداث وسطيا ودعا إلى التعايش بين اليهود والمسلمين، وقال أن معاداة السامية ناتجة عن عدم تطبيق المساواة في القانون الفرنسي بين الأهالي الجزائريين واليهود [49] مع العلم أن اليهود قد تحصلوا على العديد من الامتيازات والمكاسب بعد صدور قانون كريميو. كما كان لخروج بن جلول عن مكتب المؤتمر الإسلامي 1936 بعد حادثة اغتيال الشيخ كحول واتهام العلماء بالتدبير

للاغتيال[50] أثره الكبير في عزل الثقة منه سواء من العلماء أو من بعض النواب وخصوصا عباس الذي أصبح يقترب من العلماء أكثر مما كان عليه في السابق. وخصوصا بعدما تولى مسؤوليات ففي نوفمبر من سنة 1933 انتخب مستشارا عاما لبلدية مدينة سطيف، وفي سنة 1936 مندوبا ماليا بالعاصمة ومن ذلك زادت شعبية عباس وخصوصا بين طبقة الفلاحين الذين ظل دوما يطالب بانشغالاتهم من أعلى المنابر التي تولى المسؤولية فيها .

ولعل المتتبع لنشاط كل من بن جلول وعباس خلال منتصف الثلاثينيات يلاحظ بداية الطلاق بين الزعيمين، بل بروز السباق لكليهما فيمن يتزعم النخبة اللبرالية، إذ كانت لابن جلول مرجعية عائلية وحظوة كبيرة ونفوذ واسع بل وبراعة خطابية مكنته من البروز على الساحة السياسية، في حين لم يرق عباس إلى ذلك السلم الاجتماعي بالبساطة المتوقعة، فعائلته كانت أقل شأنا من عائلة بن جلول و لم يكن لهل السبق الديني من جهة أخرى على غرار عائلة بن جلول المعروفة بهذا الشأن في المجتمع الأوراسي والقسنطيني، والظاهر أن عباس كان عنيدا وتمكن من فرض مكانته وسط المجتمع، بعد أن عرف كيف يستغل المحيط المتواجد فيه، وقرب من علاقته بالإدارة الفرنسية وخصوصا مديرية الشؤون الأهلية التي كانت قريبة جدا من قضايا الأهالي، وقد أبرز عباس عن قدراته السياسية وكيف نفسه مع المحيط العام بما فيها الإدارة، وكل ذلك مكنه من البروز كقطب سياسي متميز [51].

وبرغم طموح كلى الزعيمين إلى البروز فإن التصادم لم يقع بينهما، وظل عباس ممن يكتبون في جريدة الوفاق الفرنسي الإسلامي ذات الاتجاه المعتدل التي كان يصدرها بن جلول[52] وكان لعباس مقالات عديدة بالجريدة يعبر من خلالها عن الفكر الجمهوري والمطالبة بالإصلاحات وقد هلل بسياسة موريس فيوليت المرنة في الجزائر برغم تعنت الكولون لتلك السياسات واعتبروها بداية التنازل لمطالب الأهالي [53].

والظاهر أن فكرة الاندماج التي طرحها عباس وجماعة النخبة اللبرالية لم يقصد بها الإذابة في الحضارة الفرنسية، بقدر ما كانوا يهدفون من رائها إلى ضرورة الحصول على المساواة في الحقوق كالواجبات التي كانوا يقدمونها وخصوصا بعد تطبيق قانون التجنيد الإجباري، وقد تجسدت مطالب النخبة في إرسال الوفود والكتابة في الصحافة والتدخلات من منابر التمثيل التي وصلوا إليها في المجالس المختلفة، ومن خلال فيدرالية النواب المسلمين الجزائريين التي أعلنوا على تأسيسها رسميا بالجزائر

العاصمة في 18/جوان 1927 .برياسة الدكتور بن التهامي، مع العلم أنها انقسمت إلى ثلاثة فيدراليات سنة 1930 أولها بالعاصمة والثانية بوهران والثالثة بقسنطينة .[54] والظاهر أن انشطار الفيدرالية إلى ثلاث فيدراليات قد فتحت المجال أكثر لجناح عباس من التقرب أكثر من الانشغالات الجزائرية، ومن تم فقد أحرزت فيدرالية النواب لعمالة قسنطينة في الانتخابات المحلية للمستشارين العاميين على أغلبية المقاعد، إذ نجح عباس في سطيف وسعدان في بسكرة وخلاف في جيجل والأخضري في قالمة وبن عبود في العين البيضاء وبوالصوف في ميلة وصحراوي في الخروب وقواهرية الزين في سوق أهراس ومن دون شك أن هذا النجاح لم يكن مرغوبا من قبل السلطة الفرنسية ، وقد أشار إلى ذلك عباس بقوله: على إثر نجاح هذه الحركة ونظرا لقوتها ونشاطها ارتعشت فرائس المستعمرين واستحوذ عليهم الفزع وتصدوا يحيكون المناورات ويدبرون الدسائس وأوعزوا إلى السلطات العمومية أن تتفادى الأمر وتتدارك الخطر فخضعت السلطة لهم ...[55]

وبرغم نشاطات النخبة اللبرالية منذ 1927الى المؤتمر الإسلامي الثاني سنة 1937، إلا أن بوادر الخلاف أصبحت بادية للعيان بين زعامات التيار، بعد فشل المؤتمر الإسلامي الثاني الذي لم يرق إعلاميا مثل ما وصل إليه المؤتمر الأول، بل كان انتكاسة جديدة خصوصا للجمعية التي غيرت من قناعاتها تجاه الإدارة الفرنسية، وحتى العديد من النواب منهم عباس الذي أصبح يفكر جليا في إيجاد مخرجا جديدا للعمل السياسي وبالتالي أصبحت الضرورة ماسة لتشكيل حزب سياسي تراعى فيه المستجدات ومن أجل المطالبة بحقوق الإنسان والمواطن الجزائري، وأعلن عشية إنهاء سنة 1938 عن تأسيس الإتحاد الشعبي الجزائري [56].

والظاهر أن عباس كان يريد من الحزب الجديد التقرب أكثر من قضايا الجزائريين الجوهرية، وكانت تشكيلته السياسية هذه مفتوحة للنخب بنوعيها المتفرنس والمعرب، وجمع طموح الشباب ومحاربة الميز الاستعماري ووجدت صداها في البداية في الشرق الجزائري وتوسعت مرحليا لتصل العديد من مناطق الوطن وكان عباس يسعى بها جمع لم كل الجزائريين حتى بلغ عدد المنخرطين بها خلال العهود الأولى أكثر من مائة ألف منخرط ومن تم استطاع عباس أن يجد مكانه بين التيارات الأخرى سواء العلماء أو الاستقلاليين أو الشيوعيين وحتى بين الطرق الدينية الأخرى بما فيها الطرقيين[57] وقد ركز عباس من خلال مطالب حزبه على مطلب المساواة بذل الاندمـــاج، ويعد بداية موفقة من عباس في تعامله مع القضية الوطنية، وقد

يكون دافع التغيير الذي كشف عنه عباس مرده إلى تفهمه الجيد لمعالم التيارات السياسية الأخرى وخصوصا العلماء الذين غيروا هم أيضا من طرحهم للقضايا الوطنية بعد الهزيمة التي منوا بها بعد المؤتمر الإسلامي، وفقدانهم للثقة في الإدارة الفرنسية وقد عبر عن ذلك بن باديس النواب بقوله: اليوم وقد يأسنا من غيرنا يجب أن نثق في أنفسنا، اليوم وقد تجو هلت قيمنا، يجب أن نعرف نحن قيمتنا، اليوم وقد خرست الأفواه عن إجابة مطالبنا، يجب أن نقول نحن كلمتنا، اليوم وقد اتحد ماضي الاستعمار وحاضره علينا، يجب أن تتحد صفوفنا..[58] مما سبق نجد أن رجال الإصلاح أصبحوا يتقربون من النخبة خصوصا بعدما اتضحت مواقفها الإيجابية من العديد من قضايا الجزائر، وخصوصا عباس الذي مد يده للجميع بغية التكتل والعمل الجماعي، وصرح بأن النصر يرتكز على تضافر كل القوى الجزائرية، وخصوصا الفئة الواسعة منهم والتي ظلت تأن تحت سيطرة المعمرين، وأشار إلى ذلك بقوله: كل الأسواق والمقاهي وحتى الأكواخ الحقيرة قادرة أن تتحول إلى معاقل وتابع كلامه إلى أن قال: نحن نريد أن تحافظ الجزائر على مظهرها المحترم وعلى لغتها وأخلاقها وتقاليدها [59] ومن دون شك فإننا نجد هناك تحولا جذريا في خطاب عباس وكذا تعامله مع القضايا الوطنية، وقد أوضح ذلك في العديد من الافتتاحيات التي نشرها في جريدة الوفاق وكان دوما يطالب من خلالها بالمساواة وتحقيق مبادئ الجمهورية ونبذ الإمبريالية الكولونيالية وغلاة المعمرين، وأصبح شيئا فشيئا يفقد الثقة من الفرنسيين، بل أصبح يراهن أكثر على ثقة واستجابة الجماهير الشعبية وطبقة الفلاحين للاستماع لصوته الداعي لتحرير الأهالي من ضيم المعمرين [60].

وعلى الرغم أن صيحة عباس الجديدة لم ترق إلى ما وصلت إليه نشاطات جمعية العلماء وحزب الشعب، أي أن هذا الأخير استطاع بكل ما يملك من قوة المناورة السياسية من جلب الكثير من المناضلين الجزائريين إلى حزبه، حتى اعتبره بعض الجزائريين وقتئذ أن عمله يمثل البديل الخاص بالنخبة الليبرالية التي أنكمش مفعولها في الوسط الجزائري وانطفأت شموعها مع اتساع رقعة واستنارة الأحزاب الأخرى.

4 - دخول عباس إلى الحظيرة الوطنية وصدور بيان فبراير 1943:

لقد سعت الإدارة الاستعمارية عشية الحرب العالمي الثانية إلى تجنيد كل القوى السياسية الجزائرية للوقوف إلى جانبها في الحر التي لاحت معالمها في الأفق،

وكانت دوما تنظر للجزائر على أنها خزانا كافيا لها تعود أليه عند الحاجة، ومن تم تقربت أكثر من التشكيلات السياسية بغرض جس النبض وجرها للخدمة، وكانت مواقف الأحزاب غير موحدة من المساندة أو الرفض أو الحياد .

والظاهر أن عباس إلى هذا التاريخ أي عشية الحرب الثانية كان لا يزال بعد يثق إلى حد كبير في الإدارة الفرنسية وكان يرى أن هناك من الفرنسيين من هم في خدمة المطالب الجزائرية، وأنه حان الوقت مرة أخرى لمساندتهم ودعمهم بغية الحصول على المطالب المطروحة، وقد ساند عباس فرنسا في حربها ضد المحور، تطوع في جبهة القتال، وكان يرى نفسه مثالا لمناضليه حتى يقتدوا به، وكتب في جريدة الوفاق في سبتمبر من سنة 1939 يقول فيما معناه: وفاء لمبادئنا وأفكارنا أنا ذاهب للحرب إلى جانب رفاقي، فإذا توفيت أوصيكم بأن تحتفلوا بذكراي، وأن تبقوا على العهد، وإن رجعت حيا فسوف أناضل معكم للدفاع عن قضيتنا المقدسة [61] لكن مشاركة عباس في الحرب مكنته من جديد من فقد الثقة في الإدارة الفرنسية التي ظلت على عنصريتها ضد الجزائريين وعاش عباس تلك المأساة ورآها بأم عينه ،وكان وقتها الأهالي المجندين والمتطوعين في الخطوط الأولى أي خطوط النار، وبرهنوا عن مقدرتهم العسكرية والدفاعية، ورجع عباس خائبا من الحرب في أواخر 1940، ومما زاده في دهشة هو تحالف الكولون مع حكومة فيشي والنازية مقابل الحفاظ على مصالحهم الضيقة في الجزائر، تلك التناقضات جعلت من عباس يغير مواقفه وأسلوبه في الكفاح السياسي، كما قلت ثقته في سياسة فرنسا الغير قارة .

كما استغل عباس ذلك الفراغ الناتج عن تطبيق الحظر، ونفي الزعماء الجزائريين ، ومصادرة الصحافة وغلق النوادي وعبر عن نفسه السياسي الطويل وعبر في العديد من المرات عن سياسته منها رسالته إلى المارشال بيتان عن طريق صديقه ماكس بونافوس بتاريخ 10/أفريل 1941 تضمنت جملة من المطالب باسم الشباب والفلاحين والعمال والعسكريين أبرز من خلالها ضرورة إلغاء القوانين الاستثنائية والميز العنصري بين الجنود الجزائريين والفرنسيين، والعناية بالتعليم وحرية الديانة الإسلامية و ترسيم العربية ونحوها من المطالب الهامة [62].

وتذكر بعض الدراسات أن عباس كان كثير التنقل بين المصالح الإدارية بعد عودته من الحرب وحاول أن يقدم مطالبه للحاكم العام شاتل، والظاهر أن هذا

الأخير لم يعر الاهتمام لعباس الذي بدت عليه ملامح اليأس وقدم استقالته من فدرالية النواب والمجلس المالي، وعند نزول الحلفاء في شمال إفريقيا في نوفمبر 1942، استعاد عباس قوته السياسية وكان يرى أن الفرصة سانحة لتقديم مطالبه من جديد للحلفاء، وتنصيب الوالي الجديد جيرو هذا الأخير الذي وضع كل قواه لخدمة الحرب، دون تخصيص ما فيه الكفاية للقضية الجزائرية.[63] وفي شتاء 1943 نصب بيروتون على الولاية العامة، وكان أكثر تفهما من سابقه للقضية الجزائرية لما قدمه الأهالي للحرب، وخلال هذه الفترة قدم عباس البيان الجزائري الذي عبر عن حبكته السياسية في الوصول إلى جمع القوى السياسية الوطنية حول هذه المطالب الهامة من عمر الحياة السياسية، ومكن عباس من ملء الفراغ السياسي الذي عانت منه الجزائر خلال الحرب، بل كان مضمون البيان نقلة نوعية في تطور الفكر السياسي لعباس، وتقربه من الواقع الجزائري وحتى من الطبقة السياسية، كما تمكن من جر شركائه التقليديين من النواب للتوقيع معه على البيان، بل نسق جهوده مع مناضلي حزب الشعب وممثلي الطلبة، ومما جاء في البيان: إدانة الاستعمار، وتطبيق تقرير المصير، ومنح الجزائر دستورا خاصا، وتطبيق المساواة، وفصل الدين عن الدولة وغيرها من المطالب الهامة [64].

ومن دون شك أن الإدارة الفرنسية سوف تسعى لإحباط نشاط عباس وجماعته، ولذلك لم تكن الاستجابة ناجحة سواء من قبل فرنسا أو الحلفاء الذين اعتبروا أن القضية فرنسية داخلية لا يمكن التدخل فيها، وبرغم ذلك فقد حرك عباس كواليس الإدارة الفرنسية، ووعدهم بيروتون بالنظر في البيان، كما اهتم به بيرك بصفته مديرا للشؤون الأهلية[65] وكان من نتائج ذلك النشاط السياسي الذي أبداه عباس وجماعته عشية إنهاء الحرب هو زيادة اهتمام الجنرال ديغول بالقضية الجزائرية، وزيارته للجزائر في خريف 1943، بعد تنصيبه لكاترو على رأس الولاية العامة وإعلانه عن سياسة جديدة للإصلاحات والتي من خلالها تم تأسيس لجنة الإصلاحات الإسلامية التي عقدت الكثير من الاجتماعات لدراسة قضايا الجزائر[66]، وقد عقدت هذه اللجنة العديد من الاجتماعات الدورية وقدمت لها الكثير من مذكرات تيارات الحركة السياسية سواء منها مطالب عباس أو مصالي أو العلماء أو الشيوعيين، ولكننا لا نبالغ إذا قلنا أن تلك الاجتماعات المرطونية كللت في النهاية بصدور مرسوم 7 مارس 1944، هذا المشروع الذي خيب آمال الأطياف السياسية جمعاء.

ومنذ ذلك التاريخ أصبح عباس الابن العاق في نظر الإدارة الفرنسية، واعتبرت نشاطاته مروقا سياسيا، ومن تم خيب آملها لأنه قال ذات يوم: بحث على الأمة الجزائرية و لم أجدها ، لكن الصيدلي خريج جامعة الجزائر والمناضل الطالب عاد إلى صوابه ونسق جهوده مع رجال الحركة الوطنية، وفتح بداية جديدة في العمل السياسي الراشد الذي دفع بفرنسا أن تجازيه بالنفي والاعتقال مثله مثل غيره من الوطنيين في وقت هام من عمر الحركة الوطنية خصوصا بعد حوادث الثامن ماي الأليمة التي لم تكن خيوطها بعيدة عن أثر حركة عباس السياسية وبذلك تطور تطورا إيجابيا تجاه القضية الوطنية.

الهوامش

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1930/1900، ج 2، ط4، (دار الغرب الإسلامي 1992) ص 194.

(2) فرحات عباس ، ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، (دار القصبة للنشر 2005) ص 85.

(3) سعد الله، الحركة الوطنية، ج 2، ص 194 .

(4) سعد الله، الحركة الوطنية، ج2، ص 197 .

(5) نفسه ، 202 .

(6) عبد القادر جغلول، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة سليم **قسطون**،ط1، (دار الحداثة بيروت 1984) ص187.

(7) أحمد مريوش، التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري وردود فعل سكان الهوقار 1916، مجلة المصادر، عدد 11، السداسي الأول 2005، ص 111 .

(8) سعد الله، الحركة الوطنية، ج2، ص 205 .

(9) عبد الحميد زوزو، الأوراس إبان الاحتلال الفرنسي، التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية 1939/1837، ترجمة مسعود حاج مسعود، ج 2، (دار هومة 2005) ص 7.

(10) Tebal; L'Afrique et la Syrie in; Afrique Française supplément; septembre 1921; p; 201 .

(11) أنور الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي ،ط1 (مكتبة الأنجلو المصرية 1970) ص 257 .

(12) أنور الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي ص 158.

(13) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 الى 1939 .و.ن.ت الجزائر 1980) ص: 19.

(14) بعد الاحتلال تأسست في الجزائر الصحافة الفرنسية لتمكين سياسة التوسع الاستيطان في سنة 183، ظهرت جريدة الأخبار ثم المبر وهي ناطق بإسم الاحتلال.

(15) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ص 140

(16) Ali Merad; La formation de la presse musulmane en Algérie 1919/1939; in ;Revue de l'institut des belles lettres arabe à Tunis; 27e année: no105;1er trimestre 1964; p 28.

(17) ناصر، الصحف، ص 36 .

(18) مسعد الريف بن ابي شنب، النهضة العربية بالجزائر – مجلة كلية الآداب جامعة الجزائر عدد 01-1964

(19) حول مساهمة هؤلاء الأعلام في بعث اليقظة الجزائرية راجع: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1 + 2، مكتبة النهضة العربية.

(20) كتب البعض حول زيارة عبده للجزائر فمنهم من أعتبرها بادرة خير على النهضة الجزائرية، في حين فسرها البعض الآخر بكونها تندرج في سياق إبعاد الجزائريين عن الفعل السياسي وأن السلطة الفرنسية كانت وراء الزيارة، وللتعرف أكثر حول مسار ونتائج الزيارة راجع: أحمد مريوش ، زيارة عبده للجزائر، جريدة المتقد عدد 3، الموائق لـــ 1991.

(21) Ali Merad; le réformisme musulman en Algérie de 1919à1940 Essai d'histoire religieuse et sociale; 2éd (les éditions El Hikma; Alger 1999: p .58 .

(22) Chérif Benhabilés; L'Algérie Française vue par un indigène (Algérie orientale 1914) p. 115

(23) مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ط2، (دار الفكر للطباعة والنشر دمشق 1984) ص 300.

(24) Charles Robert Ageron; L'Algérie des français (éditions du seuil paris 2002) p.187

(25) Bernard droz et Evelyne lever; Histoire de la guerre d'Algérie 1954-1962; (éditions du seuil Paris 1991) p. 26

(26) توفيق المدني، كتاب الجزائر، ط2، (المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984) ص 350 .

(27) Djamel Kharchi; Colonisation et politique d'assimilation en Algérie 1830/1962 ; éd casba 2004 ; p114 .

(28) رابح تركي، الشهاب لسان الإسلام والعروبة والوطنية في الجزائر 1939/1925، دورها في نهضة الجزائر الحديثة، مجلة الثقافة، العدد 81، ماي جوان 1984 / ص 202.

(29) المدني، كتاب الجزائر، ص 352 .

(30) شارل أندري جوليان، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ط1، (منشورات عويدات بيروت 1982) ص 118.

(31) سعد الله، الحركة الوطنية، ج2 ، ص 306 .

(32) المدني، كتاب الجزائر، ص 352. وكذلك: محفوظ قداش، الأمير خالد ونشاطه السياسي بين 1919 و1925، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 4، كلية الآداب جامعة الجزائر 1968، ص 37.

(33) يحي بوعزيز، الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه 1948/1912، (ديوان المطبوعات الجامعية 1991) ص 36 .

(34) Charles Robert Ageron; Le premier vote de L' Algérie musulmane les élections du coliége musulman Algérien en 1919/1920; in; revue D'Histoire et de civilisation du Maghreb; Faculté des lettres D'Alger NO 8; janvier 1970: p 97 .

(35) Mahfoud Kaddache; La vie Politique à Alger de 1919A1939. éd S N E D Alger سنة 1933 .970; p 59

(36) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ص 121، وكذلك أحمد محساس، الحركة الثورية في الجزائر، ترجمة الحاج مسعود، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال سنة 2002، ص80.

(37) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1954/1830، ج3، ط1، (دار الغرب الإسلامي، 1998) ص 170.

(38) أيفون توران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة المدارس والممارسات الطبية والدين 1880/1830، ترجمة محمد عبد الكريم أوزغلة، دار القصبة للنشر 2005، ص278.

(39) عباس، ليل الاستعمار، ص 90 .

(40) للتعرف على تفاصيل الملف أكثر أنظر: أحمد مريوش، الشيخ الطيب العقبي ودوره في القضية الوطنية، ط1، (دار هومة 2007).

(41) توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، ص 166.

(42) رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية 1956/1931، ط2، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981) ص 407.

(43) المدني، هذه هي الجزائر، ص 148.

(44) عبد الله ركيبي دراسة مقارنة للتيارات الفكرية قبل الثورة وأثناءها، مجلة الأصالة، العدد22، أكتوبر نوفمبر 1974، ص42

(45) Henri Alleg ; La Guerre D'Algérie ; éditions Messidor Paris 1981; p151.

(46) عمار أوزقان ، الجهاد الأفضل، ط1، دار الطليعة بيروت لبنان 1962، ص 27

(47) Paul Soldani ; L'abominable Assassinat de L'imam Ben Dali Kahoul; p 7 .
وكذلك: مريوش، الشيخ الطيب العقبي، ص 80.

(48) حول مطالب النخبة بعد الحرب راجع: أحمد مريوش، القضايا الوطنية في اهتمامات الأنتلجانسيا الجزائرية ما بين 1927/1876، مجلة حولية المؤرخ، العدد2، إتحاد المؤرخين الجزائريين 2002، ص 219 .

(49) أحمد مريوش، دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحركة الوطنية مابين 1952/1931، مجلة الرؤية، العدد2، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، ماي جوان 1996، ص 74.

(50) لقد شهدت مدينة قسنطينة سنة 1934 تشنجات عنيفة بين الجالية اليهودية والعرب المسلمين على إثر تبول أحد اليهود في مسجد سيدي لخضر مما أثار غضب المسلمين وتصدوا له مما دفع بباقي اليهود إلى التضامن، واتسعت المشادات بين الطرفين ودامت خمسة أيام كاملة مخلفة قتلى وجرحى في الطرفين بعد أن غضت فرنسا الطرف عن ذلك لخدمة اليهود للتعرف أكثر حول الفاجعة راجع: بن باديس، فاجعة قسنطينة: مجلة الشهاب، مجلد 10، الجزء 11، الموافق لـــ 1934/12/10، وكذلك:
Robert Attal ; Le5 août 1934;les émeutes de Constantine; éditions Masson paris 1985; p86 .

(51) بن باديس، المصدر السابق.

(52) جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين، نشرة أعمال المؤتمر الثاني، ط1، مطبعة الإتحاد تونس 1932 ص 10.

(53) (Abbas Ferhat ;Juifs et Musulmans d'Algérie; in; L'entente ;No 3 ; 12/09/1935 .

(54) عبد الرحمان بن العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر 1945/1936، ج2، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984، ص 37

(55) Benjamin Stora – Zakya Daoud; ferhat Abbas une autre Algérie; éd casba 1995; p57.

(56) جريدة الوفاق الفرنسي جريدة أسبوعية كانت تصدر في قسنطينة باللغة الفرنسية، ترأسها بن جلول وهي محاولة جادة لخلق ظروف التعاون بين الفرنسيين والجزائريين كمحاولة جديدة في برنامج النخبة المغربة، صدر منها حوالي 140 عددا وتعطلت عشية الحرب العالمية الثانية.

(57) 1931 Maurice Violette ; L'Algérie Vivra –T-elle ; paris

(58) Cloude Collot et Jean Robert Henri; le mouvement national algérien; textes 1912/1954; 2éd OPU Alger 1981; p 41 .

(56) عباس، ليل الاستعمار، ص 95.

(60) Stora . Ferhat Abbas; p 95.

(61) Stora . Abbas; P 95 .

(62) مجلة الشهاب، الجزء 7، المجلد 13، سبتمبر 1937 .

(63) (Jean Lacouture ;cinq hommes et la France; éd du seuil paris 1963 , p333 .

(64) Abbas; vers le parti politique; in; L'entente, no28; du 28 juillet 1939 .

(65) Lacouture; OP; CIT; p 227.

(66) دويدة نفيسة، تطور فكرة الوطنية الجزائرية عند فرحات عباس 1955/1927، رسالة ماجستير، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، ص 58.

(67) مريوش، الشيخ العقبي، ص 201

(68) أنظر محتوى البيان وملحقه في: سعد الله، الحركة الوطنية، ج3، ص 95

(69) عباس، ليل الاستعمار، ص 80

(70) مريوش، المرجع السابق، ص 204